

ومن تلك الساعة لَمْ تعد للشيخ وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين، فهو يتبع اللبيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها، وأنه ما دام يشتهيها فهو على رجاء في العافية والبقاء.

لقد كان يدخن وبيالغ في طلب التبغ خوفاً من خيال الموت لا سروراً بموالة التدخين، وما أقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام.

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا في عنفوانه وانطلاق طوفانه، ولكنهما يفترقان في الحب ويتكلفان الإفراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه، ولإقبالهما على شتائه الأجذب لا لإقبالهما على ربيع بهجته وروائه.

وكانا في عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار، ويتغاضبان ولا يجفلان من الغضب، ويختلفان ويلحان في الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والإلحاح، جسم فتى قويٌّ فماذا تضيره هبة من عاصفة أو لفحة من هجير؟

فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه، فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام.

سرور مشكوك فيه، وإن غاب عنه الشك فهو هزيل.

وَألم حق لا شك فيه، ثم يتلو اللقاء فيزيد هماماً علامة من علامات الخيانة التي ليس بعدها من إقناع عنده غير يقين اللمس والعيان.

وإنهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطة والمراء إذا بالغضب يدفعهما في شلاله بين صخوره وأوحاله، فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعة وبهتان.

كلا، لا جدوى من المراء، لا بقاء لهذه الحال، لا مناص من الفراق، إن كان لا مناص منه ... ولا مناص!

كانا يتلاقيان — إذا لَمْ يتلاقيا في المنزل — عند مفترق طريق في الضاحية ينشعب يميناً إلى ناحية الصحراء، ويساراً إلى ناحية الأندية ودور الصور المتحركة، وكانت تلمحه مقبلاً فتسبقه خطوات إلى حيث تواعدا من قبل؛ فإما في الصحراء أو في بعض الأندية يدخلانها على انفراد.

وقد تواعدا — بعد أسبوع من تلك الغضبة الثائرة — على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق، ليعطيها أوراقها وصورها وذكراياتها ويسترد منها أوراقه وصوره وذكراياته، ثم يفترق كل منهما في طريقه إلى حيث يختفي من حياتها وتختفي من حياته.